مكتبة ابن تيمية
القسم الأول - المؤلفات
٢

جامع الرسائل

لابن تيمية
أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم

المجموعة الأولى

تحقيق
الدكتور محمد رشاد سالم

الناشر
دار المدني
للنشر والتوزيع - جدة ت ٦٤٣٢٣٦٢

رسالة في قنوت الأشياء كلها لله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم ظ ١٩

وبه نستعين ، وبه القوة

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمدٍ وآلِهِ أجمعين وسلم تسليما .

﴿ فصــــل ﴾

في قنوت الأشياء لله عز وجل ، وإسلامها ، وسجودها له ، وتسبيحها له .

القنوت في القرآن

فإن هذه الأربعة قد ذكرها الله تعالى فى القرآن . قال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ اتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سورة البقرة ١١٦ ، ١١٧] ، وقال تعالى فى سورة الروم : ﴿ وَلَهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [سورة الروم : ٢٦، ٢٧] .

الإسلام

وأما الإسلام فقال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ٨٣] .

السجود

وأما السجود فقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهاً وَظِلَالُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ [سورة الرعد : ١٥] ، وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّأُ[1] ظِلَالُهُ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ

(١) فى الأصل : (تتفيؤ) ، وهى قراءة أبى عمرو ، وبهذه القراءة جاءت فى سائر المواضع .

سُجَّداً لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [سورة النحل : ٤٨ ، ٤٩] .
وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمٰوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ [سورة الحج : ١٨] .

التسبيح

وأما التسبيح فقال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُورًا ﴾ [سورة الإسراء : ٤٤] ،وقال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة الصف : ١] ، [سورة الحشر : ١] في موضعين، و : ﴿سَبَّحَ لِلّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [سورة الحديد : ١] ، و : ﴿ يُسَبِّحُ لِلّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة الجمعة : ١] ، [سورة التغابن : ١] في موضعين، فخمس سور افتتحت بذكر تسبيح ما في السموات وما في الأرض له ؛ وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [سورة النور : ٤١] .

فأما قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾ [سورة البقرة : ١١٦] فهو نظير قوله : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَداً * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [سورة مريم : ٨٨ ـ ٩٥] . وقد قال تعالى : ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة يونس : ٦٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٦–٢٩] .

* * *

ص ٢٠
القنوت فى اللغة

والقنوت فى اللغة /دوام الطاعة ، والمصلّى إذا طال قيامه أو ركوعه أو سجوده فهو قانت فى ذلك كلّه ؛ قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [سورة الزمر : ٩] ، فجعله قانتا فى حال السجود والقيام .

وفى الحديث الصحيح : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الصلاة أفضل ؟ فقال : طول القنوت »[1] . ولم يرد به طول القيام فقط ، بل طول القيام والركوع والسجود ، كما كانت صلاة النبى صلى الله عليه وسلم ، كانت معتدلة إذا أطال القيام أطال الركوع والسجود .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾[سورة النحل: ١٢٠]، وقال تعالى : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ [سورة النساء : ٣٤] ، وقال تعالى : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ ﴾ [سورة التحريم : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٥] ، وسمى إطالة القيام فى الصلاة قنوتاً لأنه يطيل فيه الطاعة ، ولو صلّى قاعداً لقنت وهو قاعد ، وكذلك إذا صلّى على جنب قنت وهو على جنب ، والقيام قبل الركوع يُسمى أيضاً قنوتاً .

---

(١) هوحديث جابر رضى‌الله عنه فى : مسلم ٢/١٧٥ (كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أفضل الصلاة طول القنوت) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣ / ٣٠٢ ، ٣١٤ ، ٣٩١ ؛ الترمذى (بشرح ابن العربى) ٢ / ١٧٨ – ١٧٩ (أبواب الصلاة ، باب ما جاء فى طول القيام فى الصلاة) ؛ النسائى (بشرح السيوطى) ٥/٥٨ (كتاب الزكاة ، باب جهد المقل) .

قال ابن قتيبة[1] : « لا أرى أصل القنوت إلا الطاعة ، لأن جميع الخلال: من الصلاة ، والقيام فيها ، والدعاء وغير ذلك يكون عنها[2] » .

وقال أبو الفرج[3] : « قال الزجاج[4] : القنوت هو فى اللغة بمعنيين : أحدهما القيام ، والثانى الطاعة . والمشهور فى اللغة والاستعمال أن القنوت الدعاء فى القيام ، فالقانت : القائمُ بأمر الله ، ويجوز أن يقع فى جميع الطاعات ، لأنه وإن لم يكن قياماً على الرجْلين فهو قيام بالنية » .

قلت : هذا ضعيف ، لا يُعرف فى اللغة أن مجرد القيام يسمى قنوتاً ، والرجل يقوم ماشياً وقائماً فى أمور ولا يُسمَّى قانتا ، وهو فى الصلاة يسمى قانتاً لكونه مطيعاً عابداً ، ولو قنت قاعداً ونائماً سُمِّيَ قانتاً . وقوله تعالى : ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [سورة البقرة : ٢٣٨] يدل على أنه ليس هو القيام ، وإنما هو صفة فى القيام يكون بها القائم قانتا ، وهذه الصفة تكون فى السجود أيضاً ، كما قال : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً﴾ .

---

(١) فى كتابه « تأويل مشكل القرآن » (تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر) ، ص ٣٥٠ . وهذه العبارة هى آخر كلامه الذى استغرق صفحة كاملة ، وقال هناك : « ولا أرى أصل هذا الحرف إلا الطاعة ، لأن جميع هذه الخلال . . . الخ » .

(٢) عنها : فى الأصل فيها ، وفى الهامش كتبت كلمة « عنها » وعليها حرف (خ) أى فى نسخة أخرى . وأثبتها عن تأويل مشكل القرآن .

(٣) المقصود بأبى الفرج : عبد الرحمن بن على بن الجوزى ، الإمام العلامة المتوفى سنة ٥٩٧ ، ومن كتبه « زاد المسير فى علم التفسير » (ومنه نسخة خطية) وتيسير البيان فى علم القرآن ، قال ابن رجب : مجلد ، وكتاب المغنى فى التفسير قال ابن رجب : أحد وثمانون جزءاً. انظر ترجمته ومصنفاته فى : وفيات الأعيان ٢/٣٢١-٣٢٢ ؛ تاريخ ابن الوردى ٢/١١٨؛ الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ١ / ٣٩٩ - ٤٣٣ ؛ الكامل لابن الأثير (ط. الحلبى) ١٠/٢٢٨ ، ١٢/٦٧ ؛ الأعلام للزركلى ٤/٨٩ - ٩٠ .

(٤) هو إبراهيم بن السرى بن سهل ، أبو اسحاق الزجاج ، النحوى اللغوى ، المتوفى سنة ٣١١ . ومن كتبه الهامة « معانى القرآن » ومنه نسخة خطية . انظر ترجمته ومصنفاته فى : وفيات الأعيان ١/٣١-٣٣ (وفيه : إبراهيم بن محمد) ؛ معجم الأدباء ١/١٣٠-١٥١؛ إنباه الرواة ١/١٥٩-١٦٦ (وانظر فى التعليق مراجع أخرى فى ترجمته) ؛ الأعلام ١/٣٣.

فقول القائل : إن المشهور فى اللغة أنه الدعاء فى القيام ، إنما أخذه من كون هذا المعنى شاع فى اصطلاح الفقهاء إذا تكلموا فى القنوت فى الصلاة ، وهذا عُرف خاص . ومع هذا فالفقهاء يذكرون القنوت سواء صلى قائما أو قاعدا أو مضطجعا ، لكن لما كان الفرض ليس يصحُّ أن يصلِّيَه إلا قائما ، وصلاة القاعد على النصف من صلاة القائم ، صار القنوت فى القيام أكثرَ وأشهرَ ، وإلا فلفظ « القنوت » فى القرآن واللغة ليس مشهوراً فى هذا المعنى ، بل ولا أُرِيدَ به هذا المعنى ، ولا هو أيضاً مشتركا ، بل اللفظ بمعنى الطاعة أو الطاعة الدائمة ، ولهذا يفسره المفسرون بذلك .

القنوت عند ابن تيمية هو الطاعة

ظ ٢٠ / وقد رُوى فى ذلك حديث مرفوع رواه ابن أبى حاتم من النسخة المصرية التى يروى منها الترمذى وغيره من حديث ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث ، أن درَّاجاً أبا السَّمح حدثه : عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كل حرف فى القرآن يُذكر فيه القنوت فهو الطاعة »[1] .

---

(١) هذا الحديث رواه أحمد فى مسنده ٣/٧٥ (ط . الحلبى) ونصه فيه : حدثنا عبد الله حدثنى أبى ثنا حسن (وهو ابن موسى الأشيب) حدثنا ابن لهيعة ثنا دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة » .

وروى الطبرى الحديث مرتين عن ابن لهيعة ، وسند الأولى إليه : حدثنا الربيع بن سليمان قال حدثنا أسد بن موسى قال حدثنا ابن لهيعة . وسند الثانية إليه : حدثنى المثنى ، قال حدثنا إسحاق ، قال حدثنا محمد بن حرب قال حدثنا ابن لهيعة .

وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله فى تعليقه (تفسير الطبرى ٥/٢٣١ ، ط . المعارف) : « وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٦ : ٣٢٠ ، وقال : رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى فى الأوسط . وفى إسناد أحمد وأبى يعلى ابن لهيعة وهو ضعيف » قال الشيخ أحمد شاكر : « وابن لهيعة ليس بضعيف كما قلنا فيما مضى : ٢٩٤١ » (انظر تفسير الطبرى ٣/٤٩٧) .

وفى تفسير ابن أبى طلحة[1] عن ابن عباس : ﴿ فَٱلصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ ﴾ [سورة النساء : ٣٤] : « مطيعات » .

قال ابن أبى حاتم : وروى عن مجاهد وعكرمة وأبى مالك وعطاء وقتادة والسُّدى مثل ذلك .

وروى عن مقاتل بن حيان قال : « مطيعاتٍ لله ولأزواجهن فى المعروف » .

وروى عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ وَٱلْقَانِتِينَ وَٱلْقَانِتَاتُ ﴾ قال : « يعنى المطيعين والمطيعات » .

قال : وروى عن قتادة والسدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم مثل ذلك . وروى بإسناده عن أبى العالية فى قوله : ﴿ يَا مَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ ﴾ [سورة آل عمران : ٤٣] قال: اركدى لربك . وعن الأوزاعى قال : « ركدت فى محرابها قائمةً وراكعةً وساجدةً حتى نزل ماء الأصفر فى قدميها » .

وعن الحسن أنه سئل عن قوله : ﴿ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي ﴾ قال : « يقول : اعبدى لربك » .

وعن ليث عن مجاهد قال : « كانت تقوم حتى تتورم قدماها »[2].

وقوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ ٱللَّيْلِ ﴾ قال ابن أبى حاتم : « تقدم تفسير القانت فى غير موضع القانت الذى يطيع الله ورسوله » .

وروى عن أحمد بن سنان ، عن عبد الرحمن بن مهدى ، عن سفيان ، عن فراس ، عن الشعبى ، عن مسروق ، عن عبد الله بن مسعود قال : « القانت الذى يطيع الله ورسوله » .

---

(١) هو على بن أبى طلحة . قال ابن سعد (الطبقات ٧ / ٤٥٨) : « روى التفسير عن ابن عباس ، رواه عنه معاوية بن صالح » . وانظر الجرح والتعديل ج ٣ ، ق ١ ، ص ١٩١ . وانظر تعليق الشيخ أحمد شاكر تفسير الطبرى ٢ / ٥٢٧ ـ ٥٢٨ .

(٢) انظر تفسير الطبرى (ط . المعارف) ٦/٤٠١ ـ ٤٠٣ .

فهذا تفسير السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم لألفاظ القنوت فى القرآن(١) .

﴿ فصـــل ﴾

وكذلك فسّروا القنوت فى قوله : ﴿ بَل لَّهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَٰنِتُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١١٦] ، لـكن تنوّع كلامُهم فى طاعة المخلوقات كلها لما رأوا أن من الجن والإنس من يعصى أمر الله الذى بعث به رسلَه ، فذكر كل واحد نوعاً من القنوت الذى يعُم المخلوقات .

رواية ابن أبى حاتم أوجه تفسير لفظ القنوت

قال ابن أبى حاتم : « اختلف فى قوله : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَٰنِتُونَ ﴾ على أوجه » . وروى بإسناده الحديث المرفوع : « كل حرف فى القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة » .

الوجه الأول الطاعة

وروى عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : قانتون ، قال : مطيعون . يقول : طاعة الـكافر فى سجوده سجود ظله وهو كاره .

وأيضا عن شريك ، عن خصيف ، عن مجاهد : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَٰنِتُونَ ﴾ قال : مطيعون ، كن إنساناً فـكان ، وقال : كن حماراً فـكان . ففسّرها مجاهد بالسجود طوعا وكرها ، وفسّر الـكره بسجوده ظلّه ، وفسّرها أيضا بطاعة أمره الـكونى ، وهو قوله : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سورة يس : ٨٢] وهذا الأمر الـكونى لايخرج عنه أحد .

---

(١) فسر الطبرى لفظ « القنوت » بمايوافق تفسير ابن تيمية ، وأورد الآثار عن السلف فى ذلك . انظر التفسير (ط . المعارف) ٢/٥٣٨ ــ ٥٤٠ ، ٥/ ٢٢٨ ــ ٢٣٧ (وخاصة ص ٢٣٦ ــ ٢٣٧ حيث ذكر الطبرى القول الذى يرجحه فى تأويل القنوت وهوالطاعة) ، ٦/ ٢٦٤ــ٢٦٥، ٤٠١ ــ ٤٠٤ ، ٨/٢٩٣ ــ ٢٩٤ .

وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : « أعوذ بكلمات الله التامات التى / لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر »[١]. ص ٢١

وهذان الوجهان ذكرهما ابن الانبارى[٢]، مع ذكره وجهاً آخر : أنها خاصة . قال أبو الفرج : « فإن قيل : كيف عمَّ بهذا القول وكثير من الخلق ليس له بمطيع ؟ ففيه ثلاثة أجوبة :

أحدها : أن يكون ظاهرها العموم ومعناها معنى الخصوص ، والمعنى : كل أهل الطاعة له قانتون . والثانى : أن الكفّار تسجد ظلالهم لله بالغدو والآصال والعشيّات فنسب القنوت إليهم بذلك . والثالث : أن كل مخلوق قانت له بأثر صُنْعِهِ فيه وجَرْىِ أحكامه عليه ، فذلك دليل على إلٰهِ كونه ؛ ذكرهن ابن الأنبارى » .

الوجه الثانى الصلاة

قال ابن أبى حاتم : الوجه الثانى : حدثنا أبو سعيد الأشج ، ثنا أسباط ، عن مطرِّف ، عن عطية ، عن ابن عباس ، قال : قانتون : مصلُّون » .

---

(١) فى الموطأ ٢/٩٥٠ (كتاب الشعر ، باب ما يؤمر به من التعوذ) : « وحدثنى عن مالك عن يحيي بن سعيد أنه قال: أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى عفريتا من الجن يطلبه بشعلة ، كلما التفت رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه . فقال له جبريل : أفلا أعلمك كلمات تقولهن ، إذا قلتهن طفئت شعلته وخرلفيه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بلى . فقال جبريل : فقل أعوذ بوجه الله الكريم ، وبكلمات الله التامات اللاتى لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء وشر ما يعرج فيها ، وشر ما ذرأ فى الأرض ، وشر ما يخرج منها ، ومن فتن الليل والنهار ، ومن طوارق الليل والنهار ، إلا طارقا يطرق بخير يارحمن » .

وورد الحديث مرسلا أيضا عن كعب الأحبار بعده بقليل ٢/٩٥١ ــ ٩٥٢ .

وجاء التعوذ بكلمات الله التامات بصيغ أخرى فى أحاديث صحيحة كما فى البخارى ومسلم وغيرهما . وانظر تعليقنا على الحديث فى منهاج السنة ٢/٢٩٢ ــ ٢٩٣ . وانظر أيضا الأذكار للنووى ، ص ١٢١ .

(٢) أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله بن أبى سعيد الأنبارى ، النحوى اللغوى الأديب المتوفى سنة ٥٧٧ . انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ٢/٣٢٠ ؛ فوات الوفيات ١/٥٤٧ ؛ شذرات الذهب ٤/٢٥٨ ــ ٢٥٩ ؛ إنباه الرواة ٢/١٦٩ ــ ١٧١ (وانظر التعليق) ؛ الأعلام ٤/١٠٤ .

قلت : وهذا من جنس وصفها بالسجود له والتسبيح ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [سورة النور : ٤١] . لكن قد يقال : فالصلاة صلاة المخلوقات والمؤمنين ، ولم يُرد أن الكافرين يصلون فتكون الآية خاصة . ولهذا حُكى عن ابن عباس أنه قال : هى خاصة .

الوجه الثالث الإقرار بالعبودية

قال: « والوجه الثالث، ثم روى بالإسناد المروى عن الحسين بن واقد ، عن أبيه ، عن يزيد النحوى ، عن عكرمة : كل له قانتون ، قال : مقرُّون[1] بالعبودية. قال : وروى عن أبى مالك نحوه » .

قلت : وهذا إخبار عمَّا فُطروا عليه من الإقرار بأن الله ربهم كما قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ الآية [سورة الأعراف : ١٧٢] . فإن هذه الآية بيّنة فى إقرارهم وشهادتهم على أنفسهم بالمعرفة التى فطروا عليها[2] : أَنَّ الله ربهم. وقال صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة »[3] .

وطائفة من العلماء جعلوا هذا الإقرار لما استخرجوا من صلب آدم وأنه أنطقهم وأشهدهم ، لكن هذا لم يثبت به خبر صحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم ، والآية لاتدل عليه .

---

(١) فى الأصل : مقردون ، وهو تحريف .
وفى تفسير الطبرى : (٢/٥٣٩) : « حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا يحيى بن واضح ، قال : حدثنا الحسين بن واقد ، عن يزيد النحوى ، عن عكرمة : كل له قانتون : كل مقر له بالعبودية » .

(٢) فى الأصل : عليه .

(٣) ورد هذا الحديث بتمامه فى « منهاج السنة » ٢/٢٣٤ ـ ٢٣٥ ، وتكلمت عليه طويلا هناك وذكرت مكانه فى البخارى ومسلم وسنن أبى داود وجامع الترمذى والموطأ وصحيح ابن حبان والمسند وغيرها فارجع إليه .

وإنما الذى جاءت به الأحاديث المعروفة أنه استخرجهم وأراهم لآدم، وميَّز بين أهل الجنة وأهل النار منهم، فعُرفوا من يومئذ. هذا فيه مأثور من حديث أبى هريرة، رواه الترمذى وغيره بإسناد جيد[١]. وهو أيضاً من حديث عمر بن الخطاب الذى رواه أهل السنن ومالك فى الموطأ[٢]، وهو يصلح للاعتضاد.

وأما إنطاقهم وإشهادهم فروى عن بعض السلف، وقد روى عن أُبَىّ[٣] وابن عباس، وبعضهم رواه مرفوعا من طريق ابن عباس وغيره. وروى ذلك الحاكم فى صحيحه، لكن هذا ضعيف[٤]. وللحاكم مثل هذا، يروى أحاديث

---

(١) انظر الترمذى (بشرح ابن العربى) ١١/٩٦-٢٠٠ (كتاب التفسير ، سورة الأعراف) وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح ، وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم » .

(٢) الحديث فى: سنن أبى داود ٤/٣١٢- ٣١٣ (كتاب السنة، باب فى القدر) ؛ الموطأ ٢/٨٩٨-٨٩٩ (كتاب القدر ، باب النهى عن القول بالقدر)؛ الترمذى (بشرح ابن العربى) ١١ / ١٩٤ - ١٩٦ . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن ، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر ، وقد ذكر بعضهم فى هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلا مجهولا » .

(٣) روى الطبرى فى تفسيره أثرين موقوفين على أبى بن كعب رضى الله عنه ، الأول فى تفسير قوله تعالى : (وأيدهم بروح منه) [سورة النساء : ١٧١] . انظر : التفسير (ط . المعارف) ٩/٤٢١-٤٢٢ . والثانى فى تفسير هذه الآية من سورة الأعراف . انظر : التفسير ١٣ / ٢٣٨ - ٢٣٩ . وقد صحح الأستاذ محمود شاكر إسناده وأشار إلى رواية عبد الله بن أحمد بن حنبل له فى زياداته على مسند أبيه (انظر المسند - ط. الحلبى - ٥/١٣٥) وإلى نقل الهيثمى له فى مجمع الزوائد ٧/٢٥ وإلى رواية الحاكم له فى المستدرك (٢ / ٣٢٣) مطولا . كما ذكر أن ممن رواه : الآجرى فى كتاب الشريعة ، ص ٢٠٧ ؛ ابن عبد البر فى التمهيد ، ص ٣٠٧ ، ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٦٣-٢٦٤ فى الطبعة التى أرجع إليها) ؛ الدر المنثور للسيوطى ٣ / ١٤٢ .

(٤) وردت آثار عديدة تذكر إنطاق الله لبنى آدم وإشهادهم على أنفسهم أكثرها موقوف وبعضها مرفوع . وحديث ابن عباس المرفوع رواه أحمد فى مسنده (٤/١٥١ - رقم ٢٤٥٥) ونصه : « حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا جرير - يعنى ابن حازم ، عن كلثوم ابن جبر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان - يعنى عرفة - فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها ، فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبلا : (قال ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا =

موضوعة فى صحيحه مثل حديث زريب بن برثملى وهامة بن الهيم (١) وغير ذلك ، وبسط هذا له موضع آخر .

= عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون) .

وأورد الطبرى فى تفسيره ١٣/٢٢٢ ـ ٢٥٠ كثيرا من الآثار الواردة فى هذا الصدد منها حديث ابن عباس المرفوع (رقم ١٥٣٣٨) وأحاديث أخرى موقوفة عليه (منها الأرقام ١٥٣٣٩ ـ ١٥٣٤٣ ، ١٥٣٤٧ ـ ١٥٣٥٠ ، ١٥٣٦٠ ـ ١٥٣٦٢) ومنها حديث عبد الله بن عمرو المرفوع (رقم ١٥٣٥٤) .

وقد صحح الشيخ أحمد شاكر رحمه الله حديث ابن عباس المرفوع فى تعليقه على المسند وتكلم عليه (ارجع إلى التعليق) ووافقه الأستاذ محمود شاكر على ذلك وتكلم على سائر الآثار كلاما مفصلا وبين طرقها ومواضع ورودها فى كتب السنة وصحح بعضها وضعف بعضها الآخر فارجع إلى تعليقاته .

وأشير هنا إلى رأى الطبرى الذى قال بعد أن أورد جميع الآثار فى تفسيرهذه الآية أن الوجه الأول فى تأويلها هو الذى يقول أن الله خاطب ذرية آدم وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى. فقال لهم هو وملائكته: شهدنا عليكم .. إلخ . والوجه الثانى هو أن ذلك خبر من الله عن قيل بعض بنى آدم لبعض حين أشهد الله بعضهم على بعض . وقال أصحاب هذا الوجه : معنى قوله : وأشهدهم على أنفسهم : وأشهد بعضهم على بعض بإقرارهم بذلك .

قال الطبرى : إن الوجه الأول أولى بالصواب لوصح ، ولكنه لم يعلم صحيحا . ثم قال : « وإن لم يكن ذلك عنه صحيحا ، فالظاهر يدل على أنه خبر من الله عن قيل بنى آدم بعضهم لبعض ، لأنه جل ثناؤه قال : (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا)، فكأنه قيل : فقال الذين شهدوا على المقرين حين أقروا فقالوا بلى : ـ شهدنا عليكم بما أقررتم على أنفسكم ، كيلا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . وانظر أيضا ما ذهب إليه ابن كثير فى تفسيره ٢/٢٦٣ ـ ٢٦٤ .

وقد تكلم ابن تيميه عن هذه الآية وعن حديث : كل مولود يولد الفطرة ، كلاما مسهبا استغرق معظم الجزء الأخير من كتاب « موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول » ، وهو الجزء الذى ما زال مخطوطا فى المكتبة التيمورية بدار الكتب (رقم ١٨٢ عقائد) .

(١) حديث زريب بن برثملى رواه ابن عراق الكنانى فى « تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة » ١/٢٣٩ ـ ٢٤٠ عن ابن عمر رضى الله عنه وأوله : « كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص وهو بالقادسية أن سرح نضلة بن جعونة إلى حلوان » وفيه أن نضلة سمع مخاطبا يخاطبه من الجبل فسأله من يكون وهل هو ملك أم ساكن من الجن أم طائف من عباد الله « فانفلق الجبل عن هامة كالرحا أبيض الرأس واللحية عليه طمران من صوف فقال السلام عليكم ورحمة الله. قلنا : وعليكم السلام ورحمة الله ، من أنت يرحمك الله؟ قال: أنا زريب بن برثملا وصى العبد الصالح عيسى بن مريم ، أسكننى هذا الجبل ودعا لى بطول البقاء ... =

لـكن كون الخلق مفطورين[١] على الإقرار بالخالق أمر دل عليه الـكتاب
ظ ٢٠ والسنة ، وهو معروف بدلائل العقول ، كما قد بُسط فى مواضع/ وبُيِّن أن الإقرار بالخالق فطرى ضرورى فى جِبِلاَّت الناس . لـكن من الناس من فسدت فطرته فاحتاج إلى دواء ، بمنزلة السفسطة التى تعرض لـكثير من الناس فى كثير من المعارف الضرورية ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

وهؤلاء يحتاجون إلى النظر ، وهذا الذى عليه جمهور الناس : أن أصل المعرفة قد يقع ضروريًّا فطريًّا ، وقد يُحتاج فيه إلى النظر والاستدلال .

وكثير من أهل الـكلام يقول : إنه لايجوز أن تقع[٢] المعرفة ضرورية بل لاتقع إلا بنظر وكسب ، قالوا : لأنها لو وقعت ضرورة لارتفع التـكليف والامتحان . ومنهم من ادَّعى انتفاء ذلك فى الواقع ، وهذا ضعيف لأن الامتحان والتـكليف الذى جاءت به الرسل كان بأن يعبدوا الله وحده لايشركون به ؛ إلى هذا دعا عامة الرسل ، ومن كان من الناس جاحداً دَعَوْه إلى الاعتراف

= إلخ . وروى الحديث السيوطى فى « اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة » ١/١٧٧–١٨٢ من وجوه عدة وتـكلم عنه طويلا ومما ذكره : « قال الخطيب : روى الراسى هذا الحديث المنـكر ، وابن لهيعة يدلس عن ضعفاء وسليمان بن أحمد ضعيف » .

وأما حديث هامة بن الهيم فرواه ابن عراق فى المرجع السابق ١/٢٣٨ – ٢٣٩ عن ابن عمر : « بينما نحن قعود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على جبل من جبال تهامة إذ أقبل شيخ فى يده عصا فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرد عليه السلام ، فقال : نغمة الجن وغمغمتهم من أنت ؟ قال : أنا هامة بن الهيم بن لاقيس بن إبليس . قال : وليس بينك وبين إبليس إلا أبوان ؟ قال : نعم .. إلخ » .

وروى الحديث السيوطى في « اللآلىء المصنوعة » ١/١٧٤ – ١٧٥ من وجهين وقال: «موضوع . إسحاق بن بشر الـكاهلى كذاب وضاع بالاتفاق . وأبو سلمة يروى عن الثقات ما ليس من حديثهم لا يجوز الاحتجاج به . قال العقيلى : وكلا الإسنادين غير ثابت وليس للحديث أصل . قلت : وكذا قال فى « الميزان » هو باطل بالإسنادين » .

ولم أجد الحديثين فى « مستدرك » الحاكم .

(١) فى الأصل : مفطورون .

(٢) فى الأصل : أن يقع .

بالصانع: كفرعون ونحوه، مع أنه كان فى الباطن عارفاً و إنما جحد ظلما وعلوا، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [سورة النمل: ١٤]، وقال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [سورة الإسراء: ١٠٢].

وخاتم الرسل دعا الناس إلى الشهادتين، فقال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها»(١). وقال لمعاذ فى الحديث الصحيح: «إنك تأتى قوماً أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى اليوم والليلة، فإن هم أطاعوا لك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد فى فقرائهم»(٢).

ولهذا قالت الرسل لقومهم ما أخبر الله تعالى به فى قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَاهِهِمْ﴾، إلى قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة إبراهيم: ٩ ـ ١١].

---

(١) قال السيوطى فى «الجامع الصغير»: «متفق عليه رواه الأربعة عن أبى هريرة وهو متواتر»: والحديث مروى بمعناه عن عدد من الصحابة، وانظر: البخارى ١ / ١٠ (كتاب الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة... إلخ)، ٩/١٥ (كتاب استتابة المرتدين والمعاندين، باب قتل من أبى قبول الفرائض)؛ مسلم ١/٣٩ (كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله).

(٢) الحديث بمعناه فى: البخارى ٢ / ١١٩ (كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس فى الصدقة)؛ مسلم ١/٣٧ ـ ٣٨ (كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه).

وأيضاً ، فإن المعارف لابد أن تنتهى إلى مقدمات ضرورية ، وهم لا يؤمرون بتحصيل الحاصل ، بل يؤمرون بالعمل بموجبها وبعلوم أخرى يكتسبونها بها .

وأيضاً ، فإن أكثر الناس غافلون عمّا فُطروا عليه من العلم ، فيُذَكَّرون بالعلم الذى فُطروا عليه ، وأصل الإقرار من هذا الباب ، ولهذا توصف الرسل بأنهم يذكِّرون ، ويصف الله تعالى آياته بأنها تذكرة وتبصرة ، كما فى قوله : (تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ) [سورة قٓ : ٨] .

فإذا كان من المعارف ماهو ضرورى بالاتفاق ، ولم يكن ذلك مانعاً من الأمر والنهى : إما بتذكرة وإما بالاستدلال ، فيؤمر الناس تارة بالتذكرة وتارة بالتبصرة ، ثم يؤمر الناس أن يُقرُّوا بما علموه ويشهدوا به فلا يعاندوه ولا يجحدوه ، / وأكثر الكفار جحدوا ماعلموه . ص ٢٢

والاعتراف بالحق الذى يُعلم والشهادة به والخضوع لصاحبه لا بد منه فى الإيمان ، وإبليس وفرعون وغيرهما كفروا للعناد والاستكبار ، كما ذكر الله تعالى ذلك فى كتابه .

ولكن الجهمية لما ظنت أن مجرد معرفة القلب هى الإيمان ، أرادوا أن يجعلوا ذلك مكتسباً ، وزعموا أن من كفّره الشرع كإبليس وفرعون لم يكن فى قلبه من الإقرار شىء ، كما زعموا أنه يمكن أن يقوم بقلب العبد إيمان تام مع كونه يعادى الله ورسوله ، ويسبّ الله ورسوله فى الظاهر من غير إكراه[1] ،

---

(١) يقول الأشعرى فى « مقالات الإسلاميين » ١/١٩٧-١٩٨ : « وزعموا أن الكفر بالله هو الجهل به ، وهذا قول يحكى عن جهم بن صفوان . وزعمت الجهمية أن الإنسان إذا أتى بالمعرفة ثم جحد بلسانه أنه لا يكفر بجحده ، وأن الإيمان لا يتبعض ولا يتفاضل أهله فيه ، وأن الإيمان والكفر لا يكونان إلا فى القلب دون غيره من الجوارح » .

وأما ابن حزم فيقول فى « الفصل فى الملل والنحل » ٤/٢٠٤ أن غلاة المرجئة طائفتان وأن الثانية هى : « الطائفة القائلة إن الإيمان عقد بالقلب وإن أعلن الكفر بلسانه بلا تقية وعبد الأوثان أو لزم اليهودية والنصرانية فى دار الإسلام وعبد الصليب وأعلن =

ولهذا كفَّر وكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة من قال بقولهم[١] ، كما هو مبسوط فى مواضعه[٢] .

والمقصود هنا بيان قول من قال من السلف كعكرمة وأبى مالك : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ : أى مقرُّون له بالعبودية .

الوجه الرابع القيام يوم القيامة

قال ابن أبى حاتم : والوجه الرابع ، ثم روى بإسناده المعروف عن الربيع ابن أنس : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ قال : كل له قائم يوم القيامة[٣] .

الوجه الخامس قول الإخلاص

والخامس : ثم روى بإسناده من حديث عبد الله بن المبارك عن شريك عن سالم عن سعيد بن جبير : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ : بقول الإخلاص[٤] .

قلت : وهذا إن أراد به اعترافهم بأنه ربهم وأنهم إذا اضطروا دعوا الله

= التثليث فى دار الإسلام ومات على ذلك فهو كامل الإيمان عند الله عز وجل ولى لله عز وجل من أهل الجنة ، وهذا قول أبى محرز جهم بن صفوان السمرقندى مولى بنى راسب كاتب الحارث بن سريج التميمى أيام قيامه على نصر بن سيار بخراسان » .

وقد تتلمذ الجهم على الجعد بن درهم كما اتصل بمقاتل بن سليمان من المرجئة ، وقتل مع الحارث بن سريج بمرو سنة ١٢٨ هـ .

وانظر أيضاً عنه وعن فرقته وآرائهم : مقالات الأشعرى ١/٢١٣ ، ٣١٤ ؛ الملل والنحل ١/٧٩ — ٨١ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ١٢٨ — ١٢٩ ؛ التبصير فى الدين ، ص ٦٣ — ٦٤ ؛ الخطط للمقريزى ٢/٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٧ ؛ البدء والتاريخ ٥/١٤٦ ؛ ميزان الاعتدال ١/١٩٧ ؛ لسان الميزان ٢/١٤٢ — ١٤٣ ؛ الأعلام ٢/١٣٨ — ١٣٩ .

(١) انظر رسالة الرد على الجهمية والزنادقة للامام أحمد بن حنبل (ضمن مجموعة شذرات البلاتين) ، ص ١٤ وما بعدها .

(٢) انظر مثلا : التسعينية (ضمن مجموع الفتاوى ، ج ٥) ، ص ٣١ — ٤٠ .

(٣) قال الطبرى فى تفسيره ٢/٥٣٩ (ط . المعارف) : « وقال آخرون بما حدثنى به المثنى قال : حدثنا إسحاق ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه عن الربيع : قوله : (كل له قانتون) ، قال : كل له قائم يوم القيامة » .

(٤) ذكر الطبرى فى تفسيره ٦/٤٠٣ (ط . المعارف) فى تأويل قوله تعالى : (يامريم اقنتى لربك) الآية [سورة آل عمران : ٤٣] ما يلى : « وقال آخرون : معناه : أخلصى لربك . ذكر من قال ذلك : حدثنى المثنى قال : حدثنا الحمانى ، قال : حدثنا ابن المبارك ، عن شريك ، عن سعيد : (يا مريم اقنتى لربك) ، قال : أخلصى لربك » .

مخلصين له الدين ، فهو من جنس قول عكرمة ، وإلا فالإخلاص الذى أُمروا به ، وهو أن يعبدوا الله مخلصين له الدين ، إنما قام به المؤمنون،وهذا إنما يكون على قول من يزعم أن الآية خاصة ، ولم يذكر ابن أبى حاتم هذا صريحاً عن أحد من السلف إلا أن يتأول على ذلك قول ابن عباس أو قول سعيد .

أقوال المفسرين

هذا ولم يذكر أبو الفرج هذا عن أحد من السلف ، لم يذكره إلا فيما تقدم عن ابن الأنبارى ، بل قال : « وللمفسرين فى المراد بالقنوت هٰهنا ثلاثة أقوال : أحدها : أنه الطاعة ، قاله ابن عباس وابن جبير ومجاهد وقتادة . والثانى : الإقرار بالعبادة ، قاله عكرمة والسُّدى . والثالث: القيام ، قاله الحسن والربيع » .

قال : « وفى معنى القيام قولان : أحدها : أنه القيام له بالشهادة بالعبودية، والثانى : أنه القيام بين يديه يوم القيامة » .

لكن طائفة من المفسرين ذكروا عن المفسرين قولين كالثعلبى والبغوى وغيرهما . قالوا : واللفظ للبغوى[1] : « ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ : قال مجاهد وعطاء والسُّدى: مطيعون. وقال عكرمة ومقاتل : مقرُّون بالعبودية. وقال ابن كيسان: قائمون بالشهادة ، وأصل القنوت القيام ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : أفضل الصلاة طول القنوت » .

هل القنوت خاص أم عام ؟

قال : « واختلفوا فى حكم الآية ، فذهب جماعة إلى أن حكم الآية خاص . قال مقاتل : هو راجع إلى عُزَيْر والمسيح والملائكة . وعن ابن عباس أنه قال : هو راجع إلى أهل طاعته دون سائر الناس » .

قال : «وذهب جماعة إلى أن حكم الآية عام فى جميع الخلق ، لأن [لفظ] الكل[2] يقتضى الإحاطة بالشىء بحيث لا يشذ منه شىء . ثم سلكوا فى الكفار طريقين ، قال مجاهد: تسجد ظلالهم لله عز وجل على كره منهم، قال تعالى : ﴿ وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ

(١) فى تفسيره معالم التنزيل (بذيل تفسير ابن كثير : ط . المنار) ١/٢٩٣ ـ ٢٩٤ .
(٢) فى الأصل : لأن الكل . وما أثبته عن تفسير البغوى .

وَالْآصَالِ ﴾ [سورة الرعد : ١٥] ، وقال السدى : هذا يوم القيامة ، دليله : ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ [سورة طه : ١١١] ، وقيل : قانتون : مذلَّلون مسخَّرون لما خلقوا له » .

تعليق ابن تيمية

قلت : من قال بالخصوص فإنه قد ينظر إلى سبب الآية ، وهو أنهم قالوا: اتخذ الله ولدا . وهذا إنما قالوه فى الملائكة والأنبياء كالمسيح والعُزَيْر ، فبيَّن سبحانه أن الذين قيل فيهم إنه اتخذهم أولادا هم عباد قانتون له ، كما ذكر فى الأنبياء : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٦ـ٢٨] ، فإن الضمير فى قوله: ﴿وَقَالُوا﴾ عائد على المشركين ، وهم إنما قالوا ذلك فى الملائكة ، وأما المسيح وعُزَيْر فإنما قال ذلك فيهما أهل الكتاب ، وسياق الآية يبين ذلك فإنه قال : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ١٦ـ٢٦]

وقوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ ، وقوله : ﴿ لَهْواً ﴾ قد فُسِّر بالولد والمرأة وفُسِّر باللعب ، فإن هذه الآية نظير قوله : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ الآية [الدخان : ٣٨، ٣٩] ، ونظير قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية [سورة ص : ٢٧] ، ونظير قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ [سورة الحجر : ٨٥] ، ومثله قوله تعالى ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً ﴾ الآية [سورة المؤمنون : ١١٥] .

فقوله ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾[سورة الأنبياء : ١٦]

فنزّه نفسه أن يكون فعله كفعل اللاعب العابث الذى لا يقصد غاية محمودة يريد سوق الوسائل إليها ، فإن هذا فعل الجاد الذى يجىء بالحق ، كما قال إبراهيم لما آتاه الله رشده من قبل التوراة والقرآن : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٥٢–٥٦] ، فهو لما قال ما قال : ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ [الآية : ٥٥] ، فالذى يأتى بالحق خلاف اللاعب ، فإنه يقصد أن يخبر بصدق ويأمر بما ينفع ، وهو العدل ، بخلاف اللاعب العابث فإنه ليس مقصوده هذا ، بل اللهو واللعب .

ولهذا قد يُشتم الإنسان على وجه اللعب ويفعل به أفعال منكرة فلا ينكر ذلك كما ينكره من الجاد المحق ، ولهذا كان عامة اللهو باطلا ليس له منفعة ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل إلا رميه
ص ٢٣ بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبة امرأته فإنهن من الحق»[(١)] . / فالحق ضد الباطل ، واللهو باطل ، ولهذا تنزّه سبحانه عن أن يخلقهما باطلا .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ فاللاعب صاحب باطل لا صاحب حق . ولهذا لما دخل عمر على النبى صلى الله عليه وسلم وعنده الأسود بن سريع ينشده فأسكته مرتين أو ثلاثا ، قال : « من هذا الذى تسكتنى له ؟ قال : هذا رجل لا يحب الباطل»[(٢)] ، فإن عمر كان لا يحبه ولا يصبر على صاحبه ، والنبى

---

(١) هو جزء من حديث رواه النسائى (بشرح السيوطى) ٦ / ٢٢٢ – ٢٢٣ (كتاب الخيل ، باب تأديب الرجل فرسه) عن عقبة بن عامر وأوله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة ... » وفيه : « وليس اللهو إلا فى ثلاثة : تأديب الرجل فرسه وملاعبته امرأته ورميه بقوسه ونبله ، ومن ترك الرمى بعد ما علمه رغبة عنه فإنها نعمة كفرها ، أو قال : كفر بها » .

(٢) هذا الحديث مروى بمعناه فى المسند ٣ / ٤٣٥ ؛ المستدرك للحاكم ٣ / ٦١٥ =

صلى الله عليه وسلم كان أحلم وأصبر من عمر ، فهو أيضا لا يحب الباطل ، لكنه يصبر ويحتمل منه ما لم يكن محرما ، ولكن هو لا منفعة فيه لفاعله فإذا فعله احتمله عليه ؛ فهذا بيان قول من فسّر اللاعب بالعابث وله نظائر .

والذين فسّروا بالولد والزوجة قالوا ذلك لأن من المشركين من جعل لله ولداًوصاحبة ، وقالوا : إنه ضاهى الحق ، وهم يسمون المرأة لهوا والولد لهواً ، وقال ابن قتيبة[1]: «أصل اللهو الجماع وكُنِّىَ عنه [باللهو][2] كما كُنِّىَ عنه بالسر» .

والنبى صلى الله عليه وسلم قد جعل ملاعبة الرجل امرأته من اللهو الذى ليس بباطل ، والربُّ تعالى منزَّه عن اللعب مطلقا ، فإن الذى يلاعب امرأته إنما يفعل ذلك[3] ذلك لحاجته إلى المرأة ، وحكمة ذلك بقاء النسل ، والله تعالى منزَّه عن الولادة ، فتضمنت هذه الآية تنزيهه عن الخلق عبثاً لا لحكمة ، فإن ذلك لعب وعبث ، وتضمنت تنزيهه عن أن يتخذ ما يُلهى به كالمرأة والولد ، ولهذا بيّن بعد ذلك أنه إنما خلق ذلك بالحق وأنه منزَّه عن الأولاد ، وقال : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ﴾ ، واللهو كله باطل فى حق الله تعالى ، وإن كان بعضه من الحق فى حق العباد .

وهو سبحانه وتعالى قال : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾ ، فإن مايلهو به اللاهى يكون عنده لايكون بعيداً عنه ، ونحن

= وقال الحاكم: « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ؛ المحب الطبرى فى الرياض النضرة (ط . الحلبى) ١ / ٢٧٣ ؛ مجمع الزوائد ٩/٦٦ . ورويت قطعة من هذا الحديث فى : المسند (ط . الحلبى) ٤ / ٢٤ ؛ الإصابة لابن حجر والاستيعاب لابن عبد البر فى ترجمة الأسود بن سريع ؛ طبقات ابن سعد ٧/٤٢ .

(١) فى « تأويل مشكل القرآن » ص ١٢٤ .

(٢) باللهو : زيادة من تأويل مشكل القرآن .

(٣) فى الأصل : إنما جعل ذلك .

خلقنا السماوات والأرض وما بينهما فكيف يكون هذا لعباً ؟ ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ . ثم قال : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ١٩ ، ٢٠] ؛ ثم رد على من أشرك به ؛ ثم حكى قول المشركين الذين قالوا اتخذ الرحمن ولداً ، قال سبحانه : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٦ - ٢٩] . فهذه صفة الملائكة ، والمسيح والعُزَيْر ونحوهما أيضاً هم[1] بهذه الصفة فإنهم عباد مكرمون ، قال تعالى عن المسيح : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ [سورة الزخرف : ٥٩] ، وقال : ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [سورة النساء : ١٧٢] .

فلما قال تعالى — في البقرة — : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ ، والذين قالوا اتخذ الله ولداً جعلوه إما من الملائكة وإما من الآدميين كالمسيح والعُزَيْر . فقوله تعالى : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ يبين أن هؤلاء الذين قيل فيهم إنهم أولاد هم عباد له مطيعون كما ذُكر في « الأنبياء » وغيرها ، وكما قال : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [سورة الإسراء : ٥٦ ، ٥٧ فبيّن أن هؤلاء المعبودين هم يعبدون الله تعالى . ومثله قوله : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ

(١) في الأصل : هو

آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾ [سورة الإسراء : ٤٢] على أصح القولين .

القنوت عند ابن تيمية عام

فهذا مأخذ من جعل الآية خاصة . لكن يُقال: الآية لفظها عام ، والعموم مقصود منها ، كما هو مقصود من قوله سبحانه : ﴿ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ثم قال : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ . فلما كان قوله : ﴿ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ عامًّا[1] تبين أن الجميع مملوك له ، والمملوك لا يكون ولداً ، وتبين[2] أيضاً أن كلهم له قانتون مطيعون عابدون ، والعابد المطيع لا يكون إلا مملوكاً ، لا يكون ولداً .

وأيضاً فإنه قد ذكر القنوت فى سورة « الروم » مجرّداً عن الولد ، فقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [سورة الروم : ٢٥] ، ثم قال : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُون * وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة الروم : ٢٦ ، ٢٧] ، فبين أن له مافى السماوات والأرض وأن كلا له قانتون ، وتخصيص هذا بمن قيل إنه ولدٌ فاسد ظاهر الفساد ، وكذلك تخصيصه بالمؤمنين ، فإن هذا مذكور لبيان عموم الملك والاقتدار وخضوع المخلوقات كلها له ، فلو خُصَّ به المؤمنون لكان ذلك عكس المقصود .

وهو مثل قوله : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [سورة آل عمران : ٨٣] ، فهو سبحانه يدعوهم إلى

(١) فى الأصل : عام .
(٢) فى الأصل : بين .

يدعوهم إلى دين الإسلام ، ويبين أن كل ما فى السماوات والأرض مسلم لله : إما طوعا وإما كرهاً ؛ وإذا كان لابد من أحدهما فالإسلام له طوعاً هو الذى ينفع العبد ، فلا يجوز أن يتخذ غير هذا الدين ديناً ، فإنه ذكر هذا فى تقرير أن كل دين سوى الإسلام باطل فقال : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ ﴾ ، وذكر بعد ذلك مايصير به العبد مسلماً مؤمناً فقال : ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ٨٤، ٨٥] : ذكر عبادة الله وحده والإيمان برسله كلهم ، كما ذكر فى سورة البقرة ، قال أبو العالية : قوله ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الحجر : ٩٢ ، ٩٣] قال: خصلتان يُسأل عنهما كل أحد : ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟[1] وكذلك ذكر سجود من فى السماوات والأرض له طوعاً وكرهاً ؟ والسجود هو الخضوع وهو القنوت .

ص ٢٤ وأيضا / فإذا كانت الصيغة عامة لم يجز أن يراد بها الخصوص إلا مع ما يُبيّن ذلك ، فأما إذا جُرِّدت عن المخصصات فإنها لاتكون إلا عامة ، والآية عامة عموماً مجرداً ـ بل مؤكداً ـ بما يدل على العموم . وأما تخصيص المؤمنين فهذا يكون إذا مُدحوا بذلك أو ذُكر جزاء الآخرة ، وليس المقصود هنا مدح المؤمنين بطاعته ، وإنما المقصود بيان قدرته وملكه وخضوع كل شىء له ، وأنه مع هذا وهذا يمتنع أن يكون له ولد مع خضوع كل شىء له وقنوته له . ويقال فى الركوع من التسبيح المأثور فيه : سبحان من تواضع كل شىء لعظمته ، سبحان من ذل كل شىء لعزته ، سبحان من استسلم كل شىء لقدرته .

---

(١) هذا الأثر بمعنى حديث رواه أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم. انظر :الدرالمنثور ١٠٦/٤ . وأخرجه الطبرى عن أبى العالية فى تفسيره ٤٦/١٤ (ط. بولاق) .

وعلى هذا فالقنوت الذى يعم المخلوقات أنواع : أنواع القنوت الذى يعم المخلوقات

الأول أحدها: طاعة كل شىء لمشيئته وقدرته وخلقه ، فإنه لايخرج شىء عن مشيئته وقدرته وملكه ، بل هو مُدَبَّر مُعبَّد مربوب مقهور ، ولو تخيل إليه فى نفسه أنه لا ربّ له ، وأنه يقدر أن يخرج عن ملك الرب ، فهذا من جنس ما يتخيل للسكران ، والنائم المأسور المقهور ، والمجنون المربوط بالأقياد والسلاسل ، بل نفوذ مشيئة الرب وقدرته فى المستكبرين عن عبادته أعظم من نفوذ أمر الآسر فى أسيره ، والسيد فى مملوكه ، وقيِّم المارستان فى المجنون بكثيرٍ كثير .

وهذا متوجه على قول أهل السنة الذين يقولون : لا يكون فى ملكه إلا ما يشاء ، فليس لأحد خروج عن القدر المقدور ، ولا يتجاوز ما خُطَّ له فى اللوح المسطور ؛ بخلاف قول القدرية ، فإن العصاة على قولهم خرجوا عن مشيئة وقدرته وحكمه وسلطانه وخلقه ، فليسوا قانتين لا لأمره الشرعى ولا لأمره القدرى الكونى ؛ وأما أهل السنة فيقولون إنهم قانتون لمشيئته وحكمه وأمره الكونى كما تقدم .

وعلى هذا الوجه فالقانت قد لا يشعر بقنوته ، فإن المراد بقنوته كونه مُدبَّرا مصرَّفا تحت مشيئة الرب من غير امتناع منه بوجه من الوجوه ، وهذا شامل للجمادات والحيوانات وكل شىء . قال تعالى : ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ [سورة هود : ٥٦] ، وقال تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة يس : ٨٣] .

الثانى النوع الثانى من القنوت : هو ما يشعر به القانت ، وهو اعترافهم كلهم بأنهم مخلوقون مربوبون وأنه ربهم ، كما تقدم .

الثالث الثالث : أنهم يضطرون إليه وقت حوائجهم فيسألونه ويخضعون له ، وإن كانوا إذا أجابهم أعرضوا عنه . قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَانَ ٱلضُّرُّ

دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾ [سورة يونس : ١٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُوراً ﴾ [سورة الإسراء : ٦٧] . وهو أخبر أنهم كلهم
ظ ٢٤ قانتون ، فإذا قنتوا له فدعوه وتضرعوا / إليه عند حاجتهم كانوا قانتين له ، وإن كان إذا كشف الضر عنهم نسوا ما كانوا يدعون إليه وجعلوا له أنداداً .

الرابع

الرابع : أنهم كلهم لابد لهم من القنوت والطاعة فى كثير من أوامره ، وإن عصوه فى البعض ، وإن كانوا لا يقصدون بذلك طاعته ، بل يُسلمون له ويسجدون طوعاً وكرها . وذلك أنه أرسل الرسل وأنزل الكتب بالعدل ، فلا صلاح لأهل الأرض فى شيء من أمورهم إلا به ، ولا يستطيع أحد أن يعيش فى العالم مع خروجه عن جميع أنواعه ، بل لابد من دخوله فى شيء من أنواع العدل ، حتى قطاع الطريق لابد لهم فيما بينهم من قانون يتفقون عليه ، ولو أراد واحد منهم أن يأخذ المال كله لم يمكنوه ، وأظلم الناس وأقدرهم لا يمكنه فعل كل ما يريد ، بل لابد من أعوان يريد أرضاءهم ومن أعداء يخاف تسلطهم ، ففى قلبه رغبة ورهبة تلجئه إلى أن يلتزم من العدل الذى أمر الله تعالى به مالا يريده فيُسلمَ لله ويقنت له وإن كان كارها . وهو سبحانه قال : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ ، والقنوت العام يراد به الخضوع والاستسلام والانقياد ، وإن كان فى الباطن كارها ، كطاعة المنافقين : هم خاضعون للمؤمنين مطيعون لهم فى الظاهر ، وإن كانوا يكرهون هذه الطاعة

الخامس

الخامس : خضوعهم لجزائه لهم فى الدنيا والآخرة ، كما ذكر من ذكر أنهم قانتون يوم القيامة ، وهو سبحانه قد يجزى الناس فى الدنيا فيهلكهم و ينتقم منهم ،

كما أهلك قوم نوح وعاداً وثموداً وفرعون فكانوا خاضعين منقادين لجزائه وعقابه قانتين له كرها .

والجزاء يكون فى الدنيا وفى البرزخ وفى الآخرة ، وهو سبحانه قائم على كل نفس بما كسبت ، وهو قائم بالقسط ، والجميع مستسلمون لحكمه ، قانتون له فى جزائهم على أعمالهم ، والمصائب التى يصيبهم فى الدنيا جزاء لهم . قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [سورة الشورى : ٣٠] ، وقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [سورة النساء : ٧٩] .

فهذه خمسة أنواع : قنوتهم لخلقه وحكمه وأمره قدراً ، واعترافهم بربوبيته ، واضطرارهم إلى مسألته والرغبة إليه ، ودخولهم فيما يأمر به وإن كانوا كارهين ، وجزاؤهم على أعمالهم . ودخولهم فيما يأمر به مع الكراهة يدخل فيه المنافق والمعطى للجزية عن يدٍ وهو صاغر ، والذى يسلم أولا رغبة ورهبة ، فالقنوت شامل داخل للجميع ، لكن المؤمن يقنت له طوعا وغيره يقنت له كرها ، قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهاً ﴾ [سورة الرعد : ١٥] .

﴿ فصـــل ﴾

الكلام عن السجود

والسجود من جنس القنوت ، فإن السجود الشامل لجميع المخلوقات هو المتضمن لغاية الخضوع والذل ، وكل مخلوق فقد تواضع / لعظمته وذل لعزته س ٢٥
واستسلم لقدرته ، ولا يجب أن يكون سجود كل شىء مثل سجود الإنسان على سبعة أعضاء ، ووضع جبهة فى رأس مدور على التراب ، فإن هذا سجود مخصوص من الإنسان ، ومن الأمم من يركع ولا يسجد ، وذلك سجودها

كما قال تعالى : ﴿ أَدْخُلُواْ البَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ [سورة البقرة : ٥٨] ، وإنما قيل ادخلوه رُكَّعاً . ومنهم من يسجد على جنب كاليهود ، فالسجود اسم جنس ، ولكن لما شاع[1] سجود الآدميين المسلمين صار كثير من الناس يظن أن هذا هو سجود كل أحد كما فى لفظ « القنوت » .

وكذلك لفظ « الصلاة » لما كان المسلمون يصلون الصلاة المعروفة ، صار يظن من يظن أن كل من صلى فهكذا يصلّى ، حتى صار بعض أهل الكتاب ينفرون من قولنا : إن الله يصلى ، وينزّهونه عن ذلك ، فإنهم لم يعرفوا من لفظ «الصلاة» إلا دعاء المصلى لغيره وخضوعَه له ، ولا ريب أن الله منزه عن ذلك ، لكن ليست هذه صلاته سبحانه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ والطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [سورة النور : ٤١] .

وهو سبحانه قد ذكر سجود الظل فى غير موضع كقوله : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ والشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [سورة النحل : ٤٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَلِلهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وظِلاَلُهُم بِالْغُدُوِّ والآصَالِ ﴾ [سورة الرعد : ١٥] ، ومعلوم أن الظل إذا سجد لم يسجد على سبعة أعضاء : يضع رأسه ويديه ثم يرفع رأسه ويديه ، بل سجوده ذله وخضوعه .

تفسير قوله تعالى: (وادخلوا الباب سجدا) الآية

وقد سمّى الله تعالى المنحنى ساجدا وإن لم يصل إلى الأرض فى قوله : ﴿ وإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ القَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وادْخُلُوا البَابَ سُجَّدًا وقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة البقرة : ٥٨] ، وفى الأعراف : ﴿ وإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ

(١) فى الأصل : ولكن لما ساغ .. الخ .

القَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا البَابَ سُجَّداً نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٦١] . فهنا لما أمرهم بالسكنى ، وهى المقام ، قال : ﴿ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ ولم يحتج أن يقال : رغداً ، فإن الساكن المقيم مطمئن ، وهناك قال : ﴿ ادْخُلُوا هَذِهِ القَرْيَةَ ﴾ قال : ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً﴾ ، فبين أنهم يأكلون رغداً فيتهنُّون[١] لا يخافون الخروج . وبسط الكلام فى البقرة وذكر الدخول لأنه قبل السكنى . ولهذا قال : ﴿رَغَداً﴾ ، وقال : ﴿وسَنَزِيدُ﴾ وقال : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٥٩] .

وقدَّم السجود لأنه أهم . وقد اختلفوا فى هذا السجود ، فقيل : هو الركوع ، كما روى ابن أبى حاتم من وجهين ثابتين عن سفيان الثورى ، عن الأعمش ، عن المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ادْخُلُوا البَابَ سُجَّدًا ﴾ قال : « رُكَّعاً من باب صغير ، فدخلوا من قِبَلِ أستاههم ، وقالوا : حنطة»[٢] . وقيل : «بل هو السجود بالأرض»[٣] . ثم قيل ما رواه ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس ، قال : « سُجَّدا ، قال : كان سجود أحدهم على خده» . وروى عن وهب بن منبِّه قال : «إذا دخلتموه فاسجدوا شكرا لله » فكأن صاحب هذا القول جعل السجود بعد الدخول ، ومن قال بهذا أو قال بأنهم أمروا بالركوع فهو يقول : دخولهم وهم سجد بالأرض فيه

---

(١) يتهنون : مخفف يتهنأون . فى اللسان : هنأت الطعام أى تهنأت به ... وفى المثل : تهنأ فلان بكذا وتمرأ وتسمن وتزين بمعنى واحد . . . وأكلنا من هذا الطعام حتى هنئنا منه أى شبعنا . . . وكل أمر يأتيك من غير تعب فهو هنىء .

(٢) انظر : تفسير الطبرى ٢ / ١٠٤ (الآثار ١٠٠٦ - ١٠٠٨) ، ١١٣ - ١١٤ (الآثار ١٠٢٤ ، ١٠٢٥) ؛ الدر المنثور ١ / ٧١ ؛ ابن كثير ١ / ٩٩ .

(٣) انظر تفسير الطبرى ٢ / ١١٥ (الأثر ١٠٣٢) .

ظ ٢٥ صعوبة / وقد يؤذى أحدهم ولكن هو ممكن ، فإن الإنسان يمكنه حال السجود أن يزحف إذا كانت الأرض لا تؤذيه .

وفى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه : « قال لهم : ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة ، فدخلوا يزحفون على أستاههم و يقولون حبة فى شعرة » [١] .

فهذا هو الثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم وقد قال ابن عباس وابن مسعود وغيرهما فى ذلك أقوالا تخالف هذا ، فقال خصيف عن عكرمة عن ابن عباس : « فدخلوا على شق » . وروى السدى عن أبى سعد الأزدى [٢] عن أبى الكنود عن ابن مسعود : « فدخلوا مقنعى رؤوسهم » [٣] .

قال ابن أبى حاتم : اختلف التابعون فروى عن مجاهد نحو قول عكرمة عن ابن عباس وروى عن السدى نحو ما روى عن ابن مسعود وعن مقاتل أنهم دخلوا منكفئين [٤] وأما القول [٥] فقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا : حبة فى شعره ، وإذا ثقبت الحبة وأدخلت فيها الشعرة فإنه يقال : حبة فى

---

(١) الحديث بمعناه فى : البخارى ٦ / ١٨ ـ ١٩ (كتاب التفسير ، سورة البقرة) ؛ مسلم ٨ / ٢٣٧ ـ ٢٣٨ (كتاب التفسير ، سورة البقرة) ؛ الترمذى (بشرح ابن العربى) ١١ / ٧٧ ـ ٧٩ (كتاب التفسير ، سورة البقرة) ؛ المسند (ط . المعارف) ١٥ / ٢٤٣ (رقم ٥٩٠٨) ، وقال المعلق رحمه الله : « وهو فى جامع المسانيد والسنن ٧ / ٣٩٠ » . وتكلم ابن كثير عن الحديث بالتفصيل فى تفسيره ١ / ٩٩ . وانظر : تفسير الطبرى ٢ / ١١٢ ـ ١١٣ (وكلام الشيخ أحمد شاكر فى التعليق) ؛ الدر المنثور ١ / ٧١ .

(٢) فى تفسير الطبرى ١ / ١١٣ : « عن أبى سعيد » وهو أبو سعد الأزدى الكوفى قارىء الأزد . قال ابن حجر فى « تقريب التهذيب » ٢ / ٢٤٦ : ويقال أبو سعيد .

(٣) جاء هذا القول فى تفسير الطبرى ٢ / ١١٤ ـ ١١٥ فى أثرين الأول عن ابن عباس والثانى عن عكرمة ؛ وفى الدر المنثور ١/ ٧١ عن ابن مسعود .

(٤) فى الأصل رسمت الكلمة « ملتفتين » ورجحت أن يكون الصواب ما أثبته . وعلى الكلمة إشارة إلى الهامش حيث كتبت كلمة «منكبين» وعليها حرف « خ » إشارة إلى نسخة أخرى .

(٥) أى : وأما قولهم .

شعرة ، ويقال : شعرة فى حبة ، وهذا معنى مارواه السُّدى عن مُرَّة عن ابن مسعود أنه قال : إنهم قالوا : هطى سمقاثا أزبه مزبا » وهى بالعربية : حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء[1] ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ . وكذلك رواه السدى عن أبى سعد الأزدى ، عن أبى الكنود ، عن ابن مسعود ، وهذا موافق لما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم . لكن النبى صلى الله عليه وسلم إنما تكلم بالعربية ، وهذا اللفظ أخذه ابن مسعود عن أهل الكتاب ؛ وهذا أصح من قول ابن عباس أنهم قالوا : حنطة ، مع أن هذا مروى عن غير واحد .

قال ابن أبى حاتم : ورُوى عن مجاهد وعطاء وعكرمة وقتادة والضحاك والحسن والربيع ويحيى بن رافع نحو ذلك ، لكن قد يقال : الحبة هى الحنطة ، وهم لم يقولوا بالعربية بل بلسانهم ، وهم إذا قالوا بلسانهم ما معناه : حبة حنطة : جاز أن يقال : حنطة . وحديث ابن مسعود وقد ذكر أنهم قالوا : حبة حنطة ، فلا يكون فى القول خلاف .

وأبو الفرج ذكر خمسة أقوال وهى ترجع إلى هذا . ذكر الحديث المرفوع ، والثانى حنطة ، والثالث أنهم قالوا : حبة حنطة حمراء فيها شعرة سوداء ـ قاله ابن مسعود ، والرابع كذلك إلا أنهم قالوا مثقوبة ـ قاله السدى عن أشياخه .

قلت : كلاهما رواه السدى عن ابن مسعود وهما قول واحد .

قال : والخامس أنهم قالوا : استقلاباً ، قاله أبو صالح .

---

(١) فى الأصل رسمت العبارة العبرية تطن سمعاثا ارنه مزبا . وسترد كلمة سمقاثا بعد قليل مرة أخرى. وقد ورد هذا الأثر فى تفسير الطبرى ٢ / ١١٤ (رقم ١٠٢٩) ؛ ابن كثير ١/٩٩ ؛ الدر المنثور ١ / ٧١ .وانظر تفسير القرطبي ١ / ٤١١ ؛ تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ، ص ٥٠ .

قلت: هذا الذى ذكره ابن مسعود بلسانهم «سمقاثا»[١] وقد فسره بذلك.

قال : الأقوال كلها واحدة بخلاف صفة الدخول ، فإن الثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنهم دخلوا يزحفون على أستاههم ، وفى لفظ : على أوراكهم ، والمعنى واحد ، ومانقل خلاف هذا فإنما أخذ عن أهل الكتاب ، وقد كان يؤخذ عنهم الحق والباطل . وقول ابن مسعود : مقنعى رؤوسهم ، لايناقض الزحف على أستاههم. وابن عباس قال: يزحفون على أستاههم ، كالمرفوع ، وقال: قيل: ادخلوا ركعاً ، فلو جزمنا أن هذا/مأخوذ عن النبى صلى الله عليه وسلم لجزمنا بأن الله أمرهم ص ٢٦ بالركوع ، لكن ظاهر القرآن هو السجود ، والسجود المطلق هو السجود المعروف ، وكون الباب جُعل صغيراً إنما يكون لمن يُكره على الدخول منه ليحتاج أن ينحنى ، وهؤلاء قُصدت طاعتهم فأمروا بالخضوع لله والاستغفار ، فدخولهم سجداً هو خضوع لله وقولهم : حطه ، أى احطط عنا خطايانا ، هو استغفارهم ، كما أخبر الله تعالى أن داود خرَّ راكعاً وأناب[٢] ، وكما شرع للمسلمين أن يستغفروا فى سجودهم .

وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول فى سجوده : «اللهم اغفر لى ذنبى كله ، دِقَّه وجِلَّه ، أوله وآخره ، علانيته وسرَّه »[٣]. وكان أيضاً يقول : «اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لاأحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك»[٤]. وكان يقول فى

---

(١) فى الأصل سمماثا وعليها إشارة إلى الهامش حيث كتب « سمقاثا » وعليها حرف « خ » أى فى نسخة أخرى .

(٢) إشاره إلى الآية ٢٣ من سورة ص : (... وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب) .

(٣) الحديث فى : مسلم ٢/٥٠ (كتاب الصلاة ، باب مايقال فى الركوع والسجود) .

(٤) الحديث فى مسلم ٢/٥١ (الكتاب والباب السابقان) عن عائشة رضى الله عنها قالت : « فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : اللهم أعوذ برضاك من سخطك .. الحديث » .

ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفرلى ؛ يتأول القرآن[١].
وثبت فى الصحيح لمسلم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء»[٢]. وفى الصحيح أيضاً لمسلم عن ابن عباس قال : كشف النبى صلى الله عليه وسلم الستارة والناس صفوف خلف أبى بكر فقال : « يا أيها الناس إنه لم يبق من مبشِّرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أوتُرَى له،ألا و إنى نُهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً . فأما الركوع فعظِّموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء فَقَمِنٌ أن يستجاب لكم»[٣] .

ففى هذين الحديثين أنه خص السجود بالأمر بالدعاء فيه . ولهذا كان من أهل العلم من يكره الدعاء فى الركوع دون السجود .

وحينئذ فأمْرُهم بالاستغفار وقولهم حِطَّة فى السجود أشبه ، فلم يثبت لنا إلى الآن أن الركوع يُسمَّى سجوداً بخلاف العكس ، فإنه قال فى حق داود :﴿ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ [سورة صٓ : ٢٤] . وقد ثبت بالنص الصحيح واتفاق الناس أن داود سجد ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « سجدها داود توبة ونحن نسجدها شكراً»[٤] . وفى صحيح مسلم عنه عن ابن عباس قال : « نبيكم ممن أُمِرَ أن يَقْتَدِيَ به، سجدها داود فسجدها رسول الله صلى الله عليه وسلم »[٥] . وفى صحيح

---

(١) الحديث فى : البخارى ٢/١٥٩ (كتاب الصلاة ، باب التسبيح والدعاء فى السجود)؛ مسلم ٢ / ٥٠ .

(٢) الحديث فى مسلم ٢ / ٤٩ ـ ٥٠ .

(٣) الحديث فى مسلم ٢ / ٤٨ وفيه .. فقال : أيها الناس (كتاب الصلاة ، باب النهى عن قراءة القرآن فى الركوع والسجود) .

(٤) قال ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية من سورة صٓ بعد أن أورد الحديث : « تفرد بروايته النسائى ورجال إسناده كلهم ثقات » .

(٥) الحديث فى البخارى ٤ / ١٦١ (كتاب الأنبياء ، باب واذكر عبدنا داود) ، ٦ / ١٢٤ (كتاب التفسير ، سورة صٓ) : نصه : « عن مجاهد قلت لابن عباس : أسجد فى ص ؟ فقرأ : (ومن ذريته داود وسليمان) حتى أتى (فبهداهم اقتده) فقال : نبيكم صلى الله =

مسلم عنه أيضاً قال : «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها»(١) وفى الترمذى وغيره عن ابن عباس قال : « جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله إنى رأيتنى الليلة وأنا نائم كأنى أصلى خلف شجرة ، فسجدتُ فسجدت الشجرة لسجودى ، فسمعتها وهى تقول : اللهم اكتب لى بها عندك أجراً ، وضع عنى بها وزراً ، واجعلها لى عندك ذخراً ، وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود ؛ فقرأ النبى صلى الله عليه وسلم سجدة ص ثم سجد ، فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل من قول الشجرة »(٢) .

والآثار عن السلف متواترة بأن داود سجد ، فكل ساجد راكعٌ ، وليس كل راكع ساجداً ، فإنه إذا سجد من قيام انحنى انحناء الراكع وزاد فإنه يصير ساجداً ،ولو صلَّى قاعداً أيضاً انحنى انحناء الركوع وزاد فإنه يصير ساجداً ، فالساجد راكع وزيادة ، فلهذا جاز أن يُسمَّى راكعاً وأن يُجعل الركوع نوعين : ركوعاً خفيفاً ، / وركوعاً تاماً ، فالقيام هو السجود ، بخلاف لفظ السجود فإنه إنما يستعمل فى غاية الذل والخضوع ، وهذه حال الساجد لا الراكع . ظ ٢٦

= عليه وسلم ممن أمر أن يقتدى بهم» . ولم يذكر النابلسى فى ذخائر المواريث ٢/٧٠ أنه فى غير البخارى ؛ وقال الشوكانى فى نيل الأوطار ٣ / ١٢٠ إن ابن خزيمة رواه.

(١) الحديث فى: البخارى ٢/ ٤٠ (كتاب الجمعة ، باب ماجاء فى سجود القرآن وسنتها) : « عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ص ليس من عزائم السجود وقد رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يسجد فيها » . وهو مروى فيه أيضا ٤ / ١٦١ (كتاب الأنبياء ، باب واذكر عبدنا داود) . وقال النابلسى فى « ذخائر المواريث » ٢ / ٤٩ : إن الحديث فى البخارى فى الموضعين السابقين وفى سنن أبى داود فى الصلاة عن موسى بن إسماعيل وفى الترمذى فيه عن ابن أبى عمر وفى النسائى فيه عن إبراهيم بن الحسن المقسمى . ولم يذكر أنه فى مسلم . وقد ورد الحديث فى المسند (ط . المعارف) ٤ / ١٨٠ (رقم ٢٥٢١) ، ٥/١٣١ (رقم ٣٣٨٧) ولم يذكر المعلق رحمه الله أنه فى مسلم ، وكذا الشوكانى فى نيل الأوطار ٣ / ١١٩ .

(٢) ذكر الحديث ابن كثير فى تفسيره وقال : « رواه الترمذى عن قتيبة ، وابن ماجة عن أبى بكر بن خلاد ، كلاهما عن محمد بن يزيد بن خنيس نحوه ، وقال الترمذى :غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » . والحديث فى : الترمذى (بشرح ابن العربى) ٣/٦٠ (كتاب الصلاة ، باب ما يقول فى سجود القرآن) ؛ سنن ابن ماجة ١/٣٣٤ (كتاب إقامة الصلاة ، باب سجود القرآن) .

لـكن ليس من شرط السجود مطلقاً أن يصل إلى الأرض ، فقد ثبت فى الأحاديث أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى على راحلته قِبَلَ أى وجه توجَّهتْ به ، ويُوتر عليها ، غير أنه لا يصلى عليها المـكتوبة[١] .

وقد اتفق المسلمون على أن المسافر الراكب يتطوع على راحلته ويجعل سجوده أخفض من ركوعه وإن كان لا يسجد على مستقرّ ، وكذلك الخائف ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا ﴾ [سورة البقرة : ٢٣٩] يصلى إلى القبلة وإلى غير القبلة ، ويومىء بالركوع والسجود ولا يصل إلى الأرض .

فعُلم أن الهيئة المأمور بها فى السجود على الأرض وعلى سبعة أعضاء هى أكمل سجود ابن آدم ، وله سجود لا يسجد فيه على الأرض ولا على سبعة ، بل يخفض فيه رأسه أكثر من خفض الركوع ، ولهذا كان عند جمهور العلماء لو ركع فى سجود التلاوة بدلا عن السجود لم يُجْزِه ، ولـكن إذا كانت السجدة فى آخر السورة فله أن يفعل كما ذكره ابن مسعود أنه يكتفى بسجود الصلاة فإنه ليس بينه وبينه إلا الركوع ، وهذا ظاهر مذهب أحمد ومذهب أبى حنيفة وغيرهما ، لـكن قيل : إنه جعل الركوع مكان السجود ، والصحيح أنه إنما جعل سجود الصلاة هو المجزىء كما لو قرأ ، فإن الركوع عمل فيه فلم يجعل فصلاً ، لا سيما وهو مقدمة للسجود ، ومن الناس من قال فى قصة داود إنه خرّ ساجداً بعد ما كان راكعاً . وذكر أن الحسين بن الفضل قال لأبى عبد الله بن طاهر عن قوله : ﴿وَخَرَّ رَاكِعاً﴾ [سورة ص : ٢٤] ، هل يقال للراكع : خرّ ؟ قال : لا ، ومعناه فخرّ بعد ما كان راكعاً ، أى سجد .

---

(١) انظر ما ذكره الشوكانى فى نيل الأوطار : باب صلاه الفرض على الراحلة إلا لعذر ٢ / ١٤٨ - ١٥٠ ؛ باب تطوع المسافر على مركوبه حيث توجه به ٢ / ١٨٢ - ١٨٣ ؛ باب أن الوتر سنة مؤكدة وأنه جائز على الراحلة ٣ / ٣٥ - ٣٧ .

وهذا قول ضعيف ، والقرآن إنما فيه : ﴿ وَخَرَّ رَاكِعاً ﴾ لم يقل : خر بعد ما كان راكعاً ، ولا كان داود حين تحاكموا إليه راكعاً ، بل كان قاعداً معتدلاً أو قائماً نخر ساجداً ، وسؤال ابن طاهر إنما يتوجه إذا أريد بالركوع انحناء القائم كركوع الصلاة ، وهذا لايقال فيه خَرَّ .

والمراد هنا السجود بالسنّة واتفاق العلماء ، فالمراد خَرَّ ساجداً ، وسمّاه ركوعاً لأن كل ساجد راكع لا سيما إذا كان قائما ، وسجود التلاوة من قيام أفضل ، ولعل داود سجد من قيام ، وقيل : خر راكعاً ليبين أن سجوده كان من قيام وهو أكمل ، ولفظ « خَرَّ » يدل على أنه وصل إلى الأرض فجمع له معنى السجود والركوع ، والسجود عبادة تُفعل مجردة عن الصلاة كسجود الشجرة وسجود داود وسجود التلاوة والشكر وسجود الآيات[1] وغير ذلك ، وهل يشترط له شروط الصلاة ؟ على قولين ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى ذر أنه قال: « كنت فى المسجد حين وجبت الشمس ، فقال : يا أبا ذر تدرى أين تذهب الشمس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها تذهب حتى تسجد بين يدى الله عز وجل فتستأذن فى الرجوع فيؤذن
ص ٢٧ لها ، وكأنها قد / قيل لها : ارجعى من حيث جئت ، فترجع إلى مطلعها فذلك مستقرها . ثم قرأ : ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [سورة يس : ٣٨]»[2] .

---

(١) فى سنن أبى داود ١/٤٢٥ (كتاب الصلاة ، باب السجود عند الآيات) : « عن عكرمة قال : قيل لابن عباس : ماتت فلانة ، بعض أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فخر ساجداً ، فقيل له : تسجد هذه الساعة ؟ فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتم آية فاسجدوا ، وأى آية أعظم من ذهاب أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ؟ » .

(٢) الحديث بمعناه فى : البخارى ٩ / ١٢٥ (كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء) ؛ مسلم ١ / ٩٦ (كتاب الإيمان ، باب بيان الزمن الذى لايقبل فيه الإيمان) ؛ وانظر الدر المنثور ٥ / ٢٦٣ .

فقد أخبر فى هذا الحديث الصحيح بسجود الشمس إذا غربت واستئذانها ، وكذلك قال أبو العالية وغيره . قال أبو العالية : مافى السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع ساجداً حين يغيب ، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه . ومعلوم أن الشمس لا تزال فى الفلك كما أخبر الله تعالى بقوله :﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [سورة الأنبياء :٣٣] فهى لا تزال تسبح فى الفلك ، وهى تسجد لله وتستأذنه كل ليلة كما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم ، فهى تسجد سجوداً يناسبها ، وتخضع له وتخشع ، كما يخضع ويخشع كل ساجد من الملائكة والجن والإنس .

وكذلك قوله:﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [سورة الدخان: ٢٩]. بكاء كل شىء بحَسَبِه، قد يكون خشية لله ، وقد يكون حزناً على فراق المؤمن.

روى ابن أبى حاتم ، عن ابن وهب ، أخبرنى عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال : قال : عمرو ، يعنى ابن دينار : إنى ليلةً أطوف بالبيت ، إذ سمعت حنين رجل بين الأستار والكعبة وبكاءه وتضرعه ، فوقفت لأعرفه ، فذهب ليل وجاء ليل وهو كذلك حتى كاد يسفر فانكشف الستور عنه ، فإذا هو طاووس رضى الله عنه ، فقال : من هذا ، عمرو ؟ ! قلت : نعم أمتع الله بك ، قال : متى وقفت ههنا ؟ ، قال : قلت : منذ طويل . قال : ما أوقفك ؟ قلت : سمعت بكاءك . فقال : أعجبك بكائى[1] ؟ ، قلت : نعم ، قال : وطلع القمر فى حرف أبى قُبَيْس[2] . قال : ورب هذه البِنِيَّة[3] إن هذا القمر ليبكى من

(١) « أعجبك بكائى » من « أعجبه الأمر : حمله على العجب منه ، وكسبه التعجب » انظر اللسان (عجب) .

(٢) فى معجم البلدان : « أبو قبيس بلفظ التصغير ، كأنه تصغير قبس النار ، وهو اسم الجبل المشرف على مكة . . . قيل : سمى باسم رجل من مذحج كان يكنى أبا قبيس لأنه أول من بنى فيه قبة . . . وهو أحد الأخشبين» . وانظر أيضا : معجم ما استعجم ٣ / ١٠٤٠ ؛ الجبال والأمكنة والمياه للزمخشرى ، ص ٧ ، ط . النجف ، ١٣٨١ / ١٩٦٢ .

(٣) فى اللسان : « والبنية ــ على فعيلة ــ الكعبة لشرفها إذ هى أشرف مبنى . . . وكانت تدعى بنية إبراهيم لأنه بناها ، وقد كثر قسمهم برب هذه البنية » .

خشية الله ولاذنب له ، ولا يُسأل عاعمل ولا يجازَى به ، فعجبتَ أن بكيتُ من خشية الله وأنا صاحب الذنوب ، وهذا القمر يبكى من خشية الله ، وقرأ ابن زيد : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ ﴾ [سورة الحج : ١٨] قال : فلم يستثن من هؤلاء أحداً حتى جاء ابن آدم استثناه فقال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [سورة الحج : ١٨] ، قال : والذى كان هو أحق بالشكر هو أكفرهم ، ثم قرأ : ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۞ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا ﴾ [سورة فاطر : ٢٧ ، ٢٨] قال: وكذلك اختلفوا فى دينهم كما اختلف الأولون(١) .

السجود فى اللغة

ولفظ « السجود » يستعمل فى اللغة لخضوع الجامدات وغيرها ، كالبيت المعروف :

بِجَيْشٍ تَضِلُّ الْبُلْقُ فِى حَجَرَاتِهِ ... تَرَى الأُكْمَ فِيه سُجَّداً لِلْحوافِرِ(٢)

(١) انظر لهذا الخبر والذى قبله : الدر المنثور ٤/٣٤٨ .

(٢) فى الأصل : بجيش تظل . والتصويب من المصادر المذكورة بعد . والبيت لزيد الخيل ، والرواية فيه مختلفة فهى تارة : بجمع ، وتارة : بجيش ، وفى الشطر الثانى : ترى الأكم منه ، وفى رواية : فيها ، وفى ثالثة : منها . قال الأستاذ محمود محمد شاكر فى تعليقه (تفسير الطبرى ٢/١٠٤) أن البيت فى : « الكامل ١/٣٥٨ ، والمعانى الكبير : ٨٩٠ ، والأضداد لابن الأنبارى : ٢٥٦ ، وحماسة ابن الشجرى : ١٩ ، ومجموعة المعانى : ١٩٢ وغيرها .

والباء فى قوله « بجمع » متعلقة ببيت سالف هو :

بنى عامرٍ هل تعرفونَ إذا غدَا ... أبو مِكْنَفٍ قد شَدَّ عقْدَ الدَّوَابِرِ ؟

والبلق جمع أبلق وبلقاء : الفرس يرتفع تحجيلها إلى الفخذين ، والحجرات جمع حجرة (بفتح فسكون) الناحية . والأكم (بضم فسكون ، وأصلها بضمتين) جمع إكام ، جمع أكمة ، وهى تل يكون أشد إرتفاعا مما حوله ،دون الجبل ، غليظ فيه حجاره . قال ابن قتيبة فى المعانى الكبير : يقول : إذا ضلت البلق فيه مع شهرتها فلم تعرف ، فغيرها أحرى أن يضل . يصف كثرة الجيش ، ويريد أن الأكم قد خشعت من وقع الحوافر » . وورد البيت مرة ثانية فى التفسير ٢ / ٢٤٢ (وانظر التعليق) .

قال ابن قتيبة[١]: «حجراته جوانبه ، يريد أن حوافر الخيل قد بلغت الأكم ووطئتها حتى خشعت وانخفضت» .

قال ابن عطية فى قوله: ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [سورة النحل : ٤٨] : وقالت فرقة منهم الطبرى [٢] عبّر عن الخضوع والطاعة وميلان الظلال ودورانها [٣] بالسجود ، كما يقال للمشير برأسه نحو الأرض على وجه الخضوع : ساجد ، / ومنه قول الشاعر : ظ ٢٧

وكلتا هُمَا خَرَّتْ وأَسْجَدَ رَأْسُهَا   كَمَا سَجَدَتْ نَصْرَانَةٌ لَمْ تَحَنَّفِ[٤]

﴿فصـــل﴾

وإذا كان كذلك فالله سبحانه ذكر فى الرعد قوله : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [سورة الرعد : ١٥] فعمّ فى هذه الآية ولم يستثن ، وقسّم السجود إلى طوع وكره . وقال فى الحج : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [سورة الحج : ١٨] .

وفى هذا «الكثير» قولان : أحدهما أنه لم يسجد فلهذا حـــقّ عليه العذاب ، كما تقدم عن طاووس ، وهو قول الفرّاء وغيره . والثانى : أنه سجد وحق عليه العذاب ، فإنه ليس هو السجود المأمور به .

---

(١) فى «تأويل مشكل القرآن» ص ٢٣٢ (ط . عيسى الحلبى) وليس فيه عبارة : «حجراته جوانبه» وفيه : «قد قلعت الأكم» . وانظر تعليق الأستاذ السيد أحمد صقر .

(٢) انظر تفسير الطبرى (بولاق) ١٤ / ٧٩ .

(٣) فى الأصل : الظل ودورانها .

(٤) قال الاستاذ محمود محمد شاكر (تفسير الطبرى ٢/١٤٤) أن البيت لأبى الأخزر الحمانى ، وذكر أنه فى سيبويه ٢ / ٢٩ ، ١٠٤ ، واللسان (حنف) . وقال فى شرحه : «يصف ناقتين طأطأتا رءوسهما من الإعياء ، فشبه رأس الناقة فى طأطأتها برأس النصرانية إذ طأطأته فى صلاتها . وأسجد الرجل : طأطأ رأسه وخفضه وانحنى» .

قال أبو الفرج : « وفى قوله : ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ قولان : أحدهما : أنهم الكفار وهم يسجدون ، وسجودهم سجود ظلهم ، قاله مقاتل . والثانى : أنهم لا يسجدون ، والمعنى : وكثير من الناس أبى السجود ويحق عليه العذاب لتركه السجود ، هذا قول الفرّاء » .

قلت : ذا قول الأكثرين ، وقد ذكر البغوى[١] فى قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ الآية ـ قال: «قال مجاهد: سجودها تحول ظلالها ، وقال أبو العالية : ما فى السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع ساجدا حين يغيب ثم لا ينصرف حتى يؤذن له ، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه » . قال : « وقيل : سجودها بمعنى الطاعة ، فإنه ما من جماد إلا وهو مطيع لله خاشع له[٢] مسبح له ، كما أخبر الله عز وجل عن السماوات والأرض : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [سورة فصلت:١١] . وقال فى وصف الحجارة : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة : ٧٤] ، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [سورة الإسراء:٤٤] .

قال : « وهذا مذهب حسن موافق لقول أهل السنة » .

قلت : قد تقدم قول الطبرى وغيره بهذا القول ، فإذا كان السجود فى هذه الآية ليس عامًّا وهو هناك عام ، كان السجود المطلق هو سجود الطَّوْع . فهذه المذكورات تسجد تطوعاً هى وكثير من الناس ، والكثير الذى حقّ عليه العذاب إنما يسجد كرهاً ، وحينئذ فالكثير الذى حق عليه العذاب لم يقل فيه إنه يسجد ولا نفى عنه كل سجود ، بل تخصيص من سواه بالذكر يدل

---

(١) فى تفسيره ٥ / ٥٦٢ .
(٢) فى تفسير البغوى : خاشع لله .

على أنه ليس مثله ، وحينئذ فإذا لم يسجد طائعاً حصل فائدة التخصيص وهو مع ذلك يسجد كارهاً ، فكلا القولين صحيح . وكذلك قال طائفة من المفسرين ـ واللفظ للبغوى ـ قالوا ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ بكفرهم [1] وتركهم السجود ، وهم مع كفرهم تسجد ظلالهم لله تعالى .

وقال فى سورة النحل : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَٱلْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [سورة النحل : ٤٨ ـ ٥٠]
قال : فلفظ « دابة » / إن لم يتناول بنى آدم ، فالإبل تسجد طوعاً ، وإن تناول بنى آدم فسجودهم طوعاً وكرهاً . ص ٢٨

﴿ فصـــــل ﴾

والذين فسروا السجود بالخضوع والانقياد لهم فى سجودها قولان ، أحدهما : أنه كونها مصنوعة مخلوقة منقادة لمشيئة الله واختياره ، كما قالوا فى تسبيحها مثل ذلك ، وأنه شهادتها ودلالتها على الخالق . قال أبو الفرج فى قوله : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة الرعد : ١٥] : الساجدون على ضربين : أحدهما : من يعقل فسجوده عبادة . والثانى : من لا يعقل فسجوده بيان أثر الصنعة فيه والخضوع الذى يدل على أنه مخلوق ، هذا قول جماعة من العلماء واحتجوا بالبيت المتقدم :

* ترى الأكم فيه سجداً للحوافر *

قال : وأما الشمس والقمر والكواكب فألحقها جماعة بمن يعقل ، قال

(١) فى تفسير البغوى ٥ / ٥٦٣ « وهم الكفار لكفرهم » .

أبو العاليه : سجودها حقيقة مامنها غارب إلا خرّ ساجداً بين يدى الله عز وجل ثم لا ينصرف حتى يؤذن له . قال : ويشهد لقول أبى العاليه حديث أبى ذر ، وذكره . قال : وأما النبات والشجر فلا يخلو سجوده من أربعة أشياء ، أحدها: أن يكون سجوداً لانعلمه ، وهذا إذا قلنا بردعه فيهما[1] . والثانى : أنه تفيؤ ظلاله . والثالث : بيان الصنعة فيه . والرابع : الانقياد لما سخر له .

قلت : الثالث والرابع من نمط واحد وهو كالمتقدم ، وأما السجود الذى لانعلمه فهو كما ذكره البغوى وقال البغوى أيضاً فى قوله : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ٧٤] فإن قيل : الحجر لايفهم فكيف يخشى ؟! ، قيل : الله يفهمها ويلهمها فتخشى بإلهامه . قال : ومذهب أهل السنة أن لله علماً فى الجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء لايقف عليه غيره ، ولها صلاة وتسبيح وخشية كما قال عز وجل : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ والطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ ، وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَالشَّمْسُ والقَمَرُ والنُّجُومُ ﴾ . الآية ، فيجب على المرء الإيمان به ويكل علمه إلى الله تعالى ، وذكر الحديث الصحيح عن جابر بن سَمُرَةَ عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إنى لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علىّ قبل أن أبعث ، وإنى لأعرفه الآن[2] ، وذكر حديث حنين الجذع ، وطرقه صحاح مشهورة[3] . وروى عن السدى ،

---

(١) بردعه فيهما : كذا بالأصل .

(٢) الحديث فى مسلم ٧ / ٥٨ ـ ٥٩ (كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبى صلى الله عليه وسلم وتسليم الحجر عليه قبل النبوة) . وذكره الطبرى فى تفسيره ٢ / ٢٤١ / (ط. المعارف) (وانظر التعليق) . وهو فى مسند جابر بن سمرة رضى الله عنه فى المسند (ط . الحلبى) ٥ / ٨٩ ، ٩٥ ، ١٠٥ ؛ مسند الدارمى ١ / ١٢ .

(٣) روى البخارى فى صحيحه ٥ / ١٩٥ (كتاب المناقب ، باب علامات النبوة فى الإسلام) عن ابن عمر رضى الله عنهما : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يخطب الى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن الجذع فأتاه فمسح يده عليه » ورواه من طرق أخرى عنه وعن جابر =

عن أبي عبّاد بن [أبي] يزيد[١] عن علي قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فخرجنا في نواحيها خارجا من مكة بين الجبال والشجر ، فلم يمر بشجرة ولا جبل إلا قال : السلام عليك يارسول الله[٢] . وقال : قال مجاهد : لاينزل حجر من أعلى إلى أسفل إلا من خشية الله . ويشهد لما قلنا قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [سورة الحشر : ٢١] .

قلت : وأما تفسير سجودها وتسبيحها بنفوذ مشيئة الرب وقدرته فيهما ودلالتها على الصانع فقط فالاقتصار على هذا باطل ، فإن هذا وصف لازم دائم لها لايكون في وقت دون وقت ، وهو مثل كونها مخلوقة محتاجة فقيرة إلى الله تعالى ، وعلى هذا فالمخلوقات كلها لاتزال ساجدة مسبِّحة ، وليس المراد هذا فإنه قال تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ [سورة ص : ١٨] ، وقال : ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [سورة ص : ١٩] ، وقال : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [سورة النور : ٤١] ، فقد أخبر سبحانه وتعالى عنه أنه يعلم ذلك ، ودلالتها على الرب يعلمه عموم الناس .

وأيضا فقد أخبر الله تعالى في القرآن من كلام الهدهد والنمل ، وأن سليمان

= رضي الله عنهما . والحديث مروي في سنن الترمذي (بشرح ابن العربي) ١٣ / ١١١ (كتاب المناقب ، باب حدثنا عباد بن يعقوب الكوفي) وعن أنس بن مالك وأبي وجابر وغيرهم . وهو في المسند (ط . المعارف) عن ابن عباس وأنس وابن عمر رضي الله عنهم . انظر الأرقام ٢٢٣٦ ، ٢٢٣٧ ، ٢٤٠٠ ، ٢٤٠١ ، ٢٤٣٠ ، ٢٤٣٢-٢٤٣٢ ، ٥٨٨٦ . وانظر تفسير الطبري ٢ / ٢٤١ ؛ البداية والنهاية ٦/ ١٢٥ - ١٣٢ ؛ فتح الباري ٦ / ٤٤٣ .

(١) في الأصل : عباد بن يزيد . والتصويب من سنن الترمذي . وذكره ابن حجر في تهذيب التهذيب ٥ / ١٠٩ . وقال روى عن علي وفيه إسماعيل السدي . وروى له الترمذي حديثا واحدا واستغربه .

(٢) الحديث بمعناه في : الترمذي (بشرح ابن العربي) ١٣ / ١١١ (كتاب المناقب ، باب حدثنا عباد بن يعقوب الكوفي) وقال : « هذا حديث غريب . وقال : عن عباد بن أبي يزيد » ؛ سنن الدارمي ١ / ١٢ .

عُلِّم منطق الطير بما يدل على الاختصاص ، وهذا فى الحيوان .

وأيضاً فإنه جعل الجميع يسجد ثم قال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذابُ ﴾ [سورةالحج:١٨] وهذا المعنى يشترك فيه جميع المخلوقات دائما ، وهو وصف لازم لكل مخلوق : لا يزال مفتقراً إلى الخالق ، ولا يزال دالاً عليه ، ولايزال منقاداً لما يشاء الرب .

وأيضاً فإنه قسم السجود إلى طوع وكره ، وانفعالها لمشيئة الرب وقدرته لا ينقسم إلى طوع وكره ، ولا يوصف ذلك بطوع منها ولا كره ، فإن دليل فعل الرب فيها ، ليس هو فعل منها ألبتة .

والقرآن يدل على أن السجود والتسبيح أفعال لهذه المخلوقات ، وكون الرب خالقاً لها إنما هو كونها مخلوقة للرب ليس فيه نسبة أمر إليها ، يبين ذلك أنه خصّ الظل بالسجود بالغدو والآصال ، والظل ـ متى كان وحيث كان ـ مخلوق مربوب ، والله تعالى جعل الظلمات والنور ، والقول الذى ذكره البغوى أقرب من القول الذى ذكره أبو الفرج ، وهو سبحانه تارة يجعلها آيات له ، وتارة يجعلها ساجدة مسبحة ، وهذا نوع غير هذا .

وعلى هـذا القول : الجميع واحد ، ليس فى كونها ساجدة مسبِّحة إلا كونُها آيةً دالة وشاهدة للخالق تعالى بصفاته لكونها مفعولة له ، وهذا معنى ثابت فى المخلوقات كلها لازم لها ، وهى آيات للرب بهذا الاعتبار ، وهى شواهد ودلائل وآيات بهذا الاعتبار ، لكن ذاك معنى آخر كما يفرَّق بين كون الإنسان مخلوقاً وبين كونه عابداً لله ، فهذا غير هذا ، هذا يتعلق بربوبية الرب له ، وهذا يتعلق بتألهه وعبادته للرب .

والبيت الذى استشهدوا به وهو قوله :

* ترى الأُكم فيها سُجَّدًا للحوافِرِ *

فإنما ذكر سجود الأكم للحوافر ، وذلك خضوعها وانخفاضها لها ، فهذا خضوع جماد لجماد ، ولا يلزم أن يكون سائرُ أنواع الخضوع مثلَ هذا ، وإنما يشترك فى نوع الخضوع ، وليس خضوعُ المخلوقات للخالق مثلَ هذا ، وإن قيل : هو انفعالها لمشيئته وقدرته ، بل ذاك نوع أبلغ من هذا ، فلا يجب أن يكون سجودها بغير خضوع منها وطاعة ، ولكن هذا البيت يقتضى أنه لا يجب أن يكون سجودُ كلِّ شىء وضعَ رأسه بالأرض ، وهذا حق ، بل هو خضوع للرب يناسب حاله ، وقد قيل لسهل بن عبد الله : أيسجد القلب ؟ قال : نعم ، سجدة لا يرفع رأسه منها أبداً . وأهل الجنة فى الجنة قد أُلْهِمُوا التسبيح كما ألهموا النَّفَس فى الدنيا ، وكما يلهم أهل الدنيا النَّفَسَ وهم خاضعون للرب مطيعون له ، وليس هناك سجود بوضع رأس فى الأرض ، فهذا أُمر به فى الدنيا لحاجة النفس إليه فى خضوعها لله تعالى ، فلا تكون خاضعةً إلا به ، بخلاف حالها فى الجنة فإنها قد زكت وصلحت .

آخره ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما[١] .

---

(١) كتب أسفل هذا الكلام : « بلغ مقابلة » .

فهرس الموضوعات

المقدمة . . . . . . (أ) – (ك)

هذه المجموعة (ب) - (ج)
١ - رسائل مجموعة عاشر أفندى (ع) (ج) - (ز)
٢ - رسائل الكواكب الدرارى (ك) (ز) - (ح)
٣ - رسالة المكتبة الأزهرية (حليم) (ح) - (ط)
٤ - منهج التحقيق (ط) - (ك)

الرسـائل

١ - رسالة فى قنوت الأشياء كلها لله عز وجل ١ - ٤٥

(فصل) فى قنوت الأشياء لله عزوجل، وإسلامها ،
وسجودها له ، وتسبيحها له ٣
ذكر هذه الأربعة فى القرآن ٣ - ٥
القنوت – الإسلام ٣
السجود ٣ - ٤
التسبيح ٤ - ٥
القنوت فى اللغة ٥ - ٧
القنوت عند ابن تيمية هو الطاعة ٧ - ٩
(فصل) ٩ - ٢٧

رواية ابن أبي حاتم أوجه تفسير لفظ القنوت ٩ — ١٩
الوجه الأول : الطاعة ٩ - ١٠
الوجه الثانى : الصلاة ١٠ - ١١
الوجه الثالث : الإقرار بالعبودية ١١ - ٧
الوجه الرابع : القيام يوم القيامة ١٧
الوجه الخامس: قول الإخلاص ١٧ - ١٨
أقوال المفسرين ١٨
هل القنوت خاص أم عام ؟ ١٨ - ١٩
تعليق ابن تيمية ١٩ - ٢٧
القنوت عند ابن تيمية عام ٢٣ - ٢٤
أنواع القنوت الذى يعم المخلوقات ٢٥ - ٢٧
الأول ، الثانى ٢٥
الثالث ٢٥ — ٢٦
الرابع ٢٦
الخامس ٢٦ — ٢٧

(فصل) ٢٧ - ٣٩
الكلام عن السجود ٢٧ - ٢٨
تفسير قوله تعالى (وادخلوا الباب سجداً) الآية ٢٨ - ٣٨
السجود فى اللغة ٣٨ - ٣٩
(فصل) بقية الكلام عن السجود ٣٩ - ٤١
(فصل) بقية الكلام عن السجود ٤١ - ٤٥
٢ رسالة فى لفظ السنة فى القرآن ... ٤٧ — ٥٨